وزارة الثقافة

الأديب اسعاف النشاشيبي مع الشاعر أحمد شوقي

من خطب النشاشيبي

محمد إسعاف النشاشيبي

مشروع مكتبة الأسرة للقراءة على الهواتف الذكية

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

من خطب الأستاذ
محمد إسعاف النّشاشيبي

تأليف: محمد إسعاف النّشاشيبي

صدرت الطَّبعة الأولى عام ١٩٣٢

عن مطبعة العرب في القدس

وزارة الثقافة الفلسطينية
سلسلة الموروث الثقافي
اسم المؤلف: محمد إسعاف النّشاشيبي
اسم الكتاب: من خطب الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي
الطبعة الأولى: ١٩٣٢ عن مطبعة العرب في القدس

الإشراف العام: عبد السَّلام عطاري
مراجعة وتدقيق: حنين خالد عِناية
صف وتنضيد: شادية الخطيب
تصميم الغلاف: فاطمة حسين

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين
www.moc.pna.ps

الطباعة والتجليد الفني في مطابع شركة NEW PRINT FOR TECHNICAL SERVICES

رام الله - المنطقة الصناعية
022901623
newpaint52@gmail.com

من خطب الأستاذ

محمد إسعاف النّشاشيبي

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

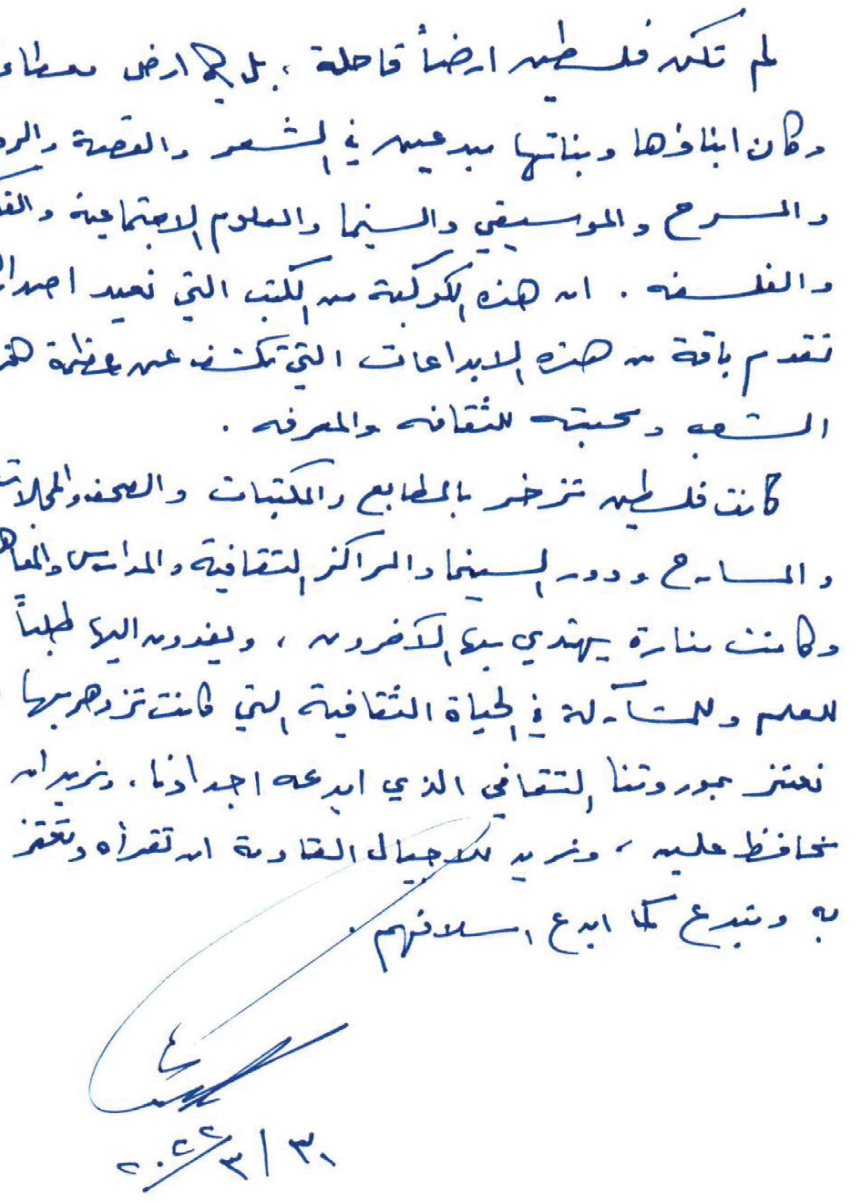
لم تكن فلسطين ارضاً قاحلة ، بل كانت ارض معطاءة
وكان ابناؤها وبناتها مبدعين في الشعر والقصة والرواية
والمسرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفكر
والفلسفة . انه لمن الكرامة ان الكتب التي نعيد اصدارها
تقدم باقة من هذه الابداعات التي تكشف عمق وغنى هذا
الشعب وحبه للثقافة والمعرفة .

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والمكتبات والصحف والمجلات
والمسارح ودور السينما والمراكز الثقافية والمدارس والمعاهد
وكانت منارة يهتدي بها الكثيرون ، ويفدون اليها لطلب
العلم والمشاركة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها .
نعتز جميعنا بتراثنا الثقافي الذي ابدعه اجدادنا . ونريد ان
نحافظ عليه ، ونريد لاجيالنا القادمة ان تقرأه وتعتز
به وتبدع كما ابدع اسلافهم .

٢٠٠٥/٢/٣٠

بسم الله الرحمن الرَّحيم

مقدّمة

•••

لأديب العربية الكبير الأستاذ النشاشيبي وقفات مأثورات، وخطب رائعات، وأقوال مستعرات، على منابر القدس وبيروت والقاهرة والشام.

•••

وفي هذه الوقفات والأقوال خصائص عجيبة، وميزات فريدة، تنقض دهشتها على النفوس والخواطر، فتقتنصها، مهما كان الحفل عظيمًا، والحشد كبيرًا، وتستولي على حركاتها، وتأخذ في إشباعها من روح العربية الصرفة النقية، العاتية الجبارة، وروح الإسلام الوهاجة المشرقة الفياضة. وروح سيد البشر ومخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومطلق الأمم من عقال الظلم والجور، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

•••

وهذه الخصائص والميزات، في الأقوال والوقفات، يعز وصفها، ويندر مثيلها، فهي من النار نور، ومن الشهب قبسات ولمعٌ، وليس راءٍ كمن سمع.

•••

(ب)

ولا يكاد الناس يفرغون من سماع خطبة من خطبه المحمدية، أو قذيفة من قذائفه المنبرية. أو غضبة من غضباته المضرية، حتى يطلع على الناس بأخرى يرمي بها الأسماع في عاصمة من العواصم العربية،

ثـم يحتجـب ثـم يظهـر، وهكـذا دواليـك، حتـى إذا جمعـت هـذه الخطـب في مجلـد واحـد، لتألّـف منهـا موكـب مـن البلاغـة حافـل، ليسـت رؤيـة الجيـش الزاحـف إلى القتـال بـأروع مـن رؤيتـه، ولا صيحـات النـزال وقـت يشـتد النضـال، ويصـدق الفعـال، بأبلـغ تأثـيرًا مـن صيحاتـه ونـدائـه!

•••

هذه خطبة في تأبين «السـعدون»!

ألقيت في القدس منذ أكثر من ثلاثين شـهرًا.

ولمـا كان الأسـتاذ النشاشـيبي في مهرجـان الأسـتاذ الغلاييني في بـيروت، في الشـهر المـاضي، (وفي هـذا المهرجـان ألبـس صاحبـه تاجًـا مـن تيجـان العـرب) خطـب خطبـة طـارت كل مطـار، تخاطفتهـا الأسـماع وشـخصت إليهـا الأبصـار، ونشرتهـا كـبرى الصحـف المصريـة والشـامية مثـل «الجهـاد» «والنـداء» وغيرهـما، وحملهـا كل بريـد وقطـار، فطمـع النـاس في جـوده وطلبـوا أن يسـمعهم شـيئًا مـن خطبتـه في تأبـين شـهيد العـراق، ومـا أكـثر مـا في العـراق مـن شـهداء ومشـاهد، فاسـمعهم مـا أرقصهـم وأشـجاهم، وكان ذلـك باعثًـا عـلى طبـع هـذه الخطبـة في رسـالة عـلى حـدة، إجابـة لسـؤل سـألوه، ونـزولًا عنـد أمـر أمـروه، وهـم الكـرام لا يـرد لهـم أمـر، وهـا هـي:

(ج)

العراق في سبيل العربية

وقد سمعنا أبياتًا بليغة لشاعر عربي كبير من فلسطين أوحت الخطبة بها إليه، وقد رأينا نشرها في هذه المقدمة وهي:

لغة «الجزيرة» حقها الإنصاف

من ترتجيهم؟ صيدها الشغاف

من كل أروع لا تلين قناته

ممن إذا شاموا المذلة عافوا

إن عقها أهل الضلال فإنما

برٌ بها وبربها «اسعاف»

أدب وأيم الله ذوب حشاشة

وبلاغة هي قبلة ومطاف

هذا البيان «محمد» أوحى

فله على قول الورى إشراف

هو روح من عشق «الكتاب» وإنه

سم لشانئه البغيض زعاف

العراق في سبيل العربية

•••

خبر ما، نابنا مصمئلُ

جل حتى دق فيه الأجل

بزنا الدهر - وكان غشومًا -

بأبي، جاره ما يُذل

قالوا: ابكه وقل كلمتك يا أستاذ!

قلت: إن حزني: عليه لعظيم ولكن القلب مكلوم، والقريحة مجروحة، واللسان معصوب: فإنه قد طلع علي أمس في الليل، في الظلام، في أحد الشعاب، وكنت وحيدًا لا رفيق ولا أنيس ولا ظهير، طلع علي الجور متجسدًا والانتقام متجسمًا، وتصديًا لي كي يفتكا بي. وقد تأملتهما، تأملت شبحيهما فوجدت وغدين انكليزيين.

إن لي مع الجائرين المنتقمين لشأنًا.

***

قالوا: ابكه وإلا غضبت عليك عربيتك.

أعوذ بمحمد، أعوذ بالعربية من غضب العربية.

وهل لي في حياتي ومماتي إلا هي؟

وهل معتصمي، وشرفي، ومجدي، في الوجود غير عربيتي؟

وهل سموت وكرمت عند العظام وعند الملوك إلا بها؟

أنا لا أشـتري برضاها هذي الدنيا بحذافيرها (أسـتغفر الله) ولا الآخرة.

أعـوذ بالعربية من غضب العربية.

أنـا خادمهـا، أنا عبدها، أنا عبد لغتها، أنا عبـد قرآنها، أنا عبد محمدها.

أنا سـيد لكل حر سيد بهذي العبودية.

أعـوذ بالعربية من غضب العربية.

***

قالـوا: اندبـه إنـه بطـل عـربي، وإنـه العـراق فـلا تكفـرن بفضـل العـراق. وأنـا عـلى أمويتـي وشـاميتي، مـا أنكـرت عباسـيتي ولا عراقيتـي، كـما أني لم أجحـد فاطميتـي ولا مصريتـي.

كلهـم كانـوا عربًـا، وكلهـم للعـرب، وكلهـم للعربيـة، وكلهـم ذوو فضـل وإفضـال، وكلهـم صفحـات مجـد باهـرات خالـدات، وكلهـم مـن رسـول اللـه ملتمـس.

فكيـف ما يحزنني خطب العراق؟

***

كيـف لا يحزنني خطب العراق؟

وهـل ارتجي خيرًا إلا من العراق؟

وهـل ارتقـب المهـدي المنتظـر، هـل ارتقـب صـلاح الديـن القـرن العشريـن إلا مـن العـراق؟

وهـل جـاء يوسـف بـن أيـوب، هـل جـاء صـلاح الديـن ليجاهـد آبـاء هـؤلاء إلا مـن العـراق؟

هـل كان صلاح الديـن إلا عربيًا عراقيًا وأبن عربي عراقي؟

فكيـف ما يحزنني خطب العراق؟

***

إني (والله) لآويـن للعـربي وقـد ضيـم وقـد قبـل الضيـم، وقـد هـان وقـد سـهل الهـوان عليـه. فكيـف بي مـع عائفـه مـع آبيـه، مـع اباتـه، مـع رافضيـه. وهـل آبى لضيـم مـن عراقـي؟

فكيـف لا يحزنني خطب العراق؟

***

جهـل العراقيـين عـدوٌ طامـع، وجهـل مقالـة معاويـة ليزيـد فيهـم وجهـل نفوسـهم الابيـة، وأنوفهـم الحميـة، وقلوبًـا هنـاك قاسـية، فـأراد أن يسـتذلهم وأراد أن يسـتعبدهم وهـم كـما قـال يزيـد بـن المهلـب فيهـم «هـم أهـل العـراق، أهـل السـبق والسـباق، ومـكارم الأخـلاق» فأبـوا أن يسـتذلوا، وأبـوا أن يسـتعبدوا وعملـوا، بقـول أبي بكـر لخالـد وصـاح صائحهـم: رِدُوا دجلـة الموت وفرات الدم فوردوها، وهل يسـلم الشرف الرفيع بغير هذا؟

متـى تجمع القلب الذكي وصارمًا

وانفًـا حميًا تجتنبك المظالم

حموا حماهم وسـما بيتهم

في باذخات الشرف العالي

حمـوا حماهـم ولم يكونوا كأناس كأناث قيل فيهم:

كرهوا الموت فاسـتبيح حماهم

وأقامـوا فعل اللئيم الذليل

أمن الموت تهربون

فـإن الموت موت الهزال غير جميل

فناداهـم: إلي إلي، نحـن أصدقاء لا أعداء، نحن حلفاء لا خصماء.

فتعالـوا إلى معاهدة، تعالوا إلى محالفة!

هـم الافرنج، هم من تدرون!

تراهم يغمزون من اسـتركّوا

ويجتنبـون من صدق المصاعا

فهـل صدق القوم في صداقتهم؟

هـل صدق القوم في محالفتهم؟

ومـن نكد الدنيا كما قال المتنبي

***

إن لم يصدقوا فأعيدوها جذعة، فالموت شراب استعذ بناه، ومورد غير مجتوى طالما وردناه. وأنتم بنو الموت ومساعر الحروب. وإن نسي العدو ونسيتم - ولستم بالناسين - ذكرتكم. وإن جهلتم الطريق – وما أنتم بجاهليها – علمتكم. وإن لم تجودوا بنفوسكم لأجل بلادكم - وأنتم الاجاود ولستم بالباخلين - اريتكم.

وما الحياة ونفسي بعد ما علمت

أن الحياة كما لا تشتهي طبع؟

كل النكال أطيق إلا ذلة

إن العزيز عذا به بالهون

إن موتًا في عز خير من حياة في ذل

الجود بالنفس أقصى غاية الجود

صاح بهذا ومات شهيدًا!

يستعذبون منا ياهم كأنهم

لا ييأسون من الدنيا إذا قتلوا

***

رآه ملك العراق مكفنا بدمه فبكى وقال: لن يموت العراق، إن العراق منبت الرجال، معدن الأبطال! أجل – ملك العراق - لن يموت العراق، ولن تموت العربية إنها قد قامت أربعة عشر قرنًا في وجه الخطوب.

إنها باقية وإن لم يكن كون.

إنهـا خالدة وإن زال الوجود.

محمد هو القوة العربية المتجسـدة.

والعربيـة هي محمـد قوة عربية معنوية أبدية

فـلا تطمعـن قـوى الكـون في أن تهـن هـذه القـوة، في أن تهـن العربيـة أو تهـون.

***

يا عبد المحسـن إنا عليك لمحزنون!

ويـا عـراق! في سـبيل محمـد وفي سـبيل العربيـة مـا تلاقـي وتعـاني، ونلاقـي ونعـاني.

إسعاف النشاشيبي

مـن أعضاء المجمع العلمي العربي

مقام إبراهيم

خطبة

محمد إسعاف النّشاشيبي

مـن أعضاء المجمع العلمي العربي

في حفلـة التأبين الكبرى

التي أقامها

رجال **الكتلة الوطنية** في الشَّـام

في دمشـق ١٥ شوال سنة ١٣٥٤

لفقيـد العرب البطل المجاهد

إبراهيم هنانو

أهدي هذه الخطبة

إلى

رَوْحَي

البطلـين العظيمين المجاهدين

عماد الدّين الشَّـهيد وابنه نور الدّين

محمد إسعاف النّشاشيبي

مقام إبراهيم

•••

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيد الوجود وسيد الأنبياء والمرسلين وجميع العالمين (محمد) صلى الله عليه وسلّم.

باركَ الله وحيا أمجادًا كرامًا أنجادا وطنيين! غدَوْا يمجدون عظيمًا من إخوانهم وخُلصانهم من الأبطال المحاميس الأبرار المجاهدين. إن في ذلك لذكرى «إِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ المؤمنين».

سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين

•••

١) إن البطولة لحرّى بالتمجيد وبالتعظيم، وإن برا بأمته، ودينه الحق، ووطنه - لحقيق بالتفخيم. وإن المجاهدين هم صفوة الناس «أولئكَ هُمْ خَيْرُ البرية» وهم أولياء الله المخلصون.

سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين

ليس وليًا زاهد متماوت متسكن في زاهدين. وليس وليًا مشعبذ مُؤوّل مبدل في الدين. وليس وليًا مجذوب ذو شطح أو مجنون.

وليس وليًا صوفي قرمطي باطني، أقواله هن بنات الحشيشة والأفيون.

سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين

•••

لم يشق المسلمين إلا ملوك المسلمين. ولم يُضع المؤمنين إلا الأغبياء الأمراء الأدنياء الظالمون. ولم يجبن، ولم يخوف في الحياة الناس إلا المرقدون (سقاة المرقد) المنومون المنيمون (أي القاتلون) المضلون من المعتزين بالباطل إلى رجال الدين. وما للمستضعفين في الأرض إلا العالمون يعملون وإلا المجاهدون.

سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين

•••

إنهم الأبطال الأكرمون يشقون، وإنهم الأبطال الصابرون يعذبون. وإنهم الأبطال يُصفدون بالحديد الشديد كما صفدت يدا إبراهيم ويسجنون، وإنهم الأبطال المستميتون، «يُقاتِلُونَ في سبيل الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ»

سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين

إنهم الأبطال يغامرون ويُقدمون ويرجون ويأملون إذ الجبن مُتكمكمون مُستَكسِلون ويائسون، مع الخوالف والقواعد قاعدون. والمؤمنون - و«القناعة من طباع البهائم».

«القناعة خُلق البهيمة»- مُؤمّلون وطامِعون وطامحون وراجون «إِنَّهُ لَا يَيأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرِونَ»

سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين

•••

لما تهدم بناء ذاك الرجاء في دار العرب الشاميين، واقتحم تنين اليأس في المقتحمين. وقنط القانطون، وظُنت الظنون، وخاف الجريء، وكع الشجاع، وهاب القوي - والقنوط في الأمم والفناء سواء- طلع المشيع الصنديد والأسد الرهيص المتوكل على الله إبراهيم هنانو الحلبي الشامي العربي المسلم. وأردى التنين بحربته، بثورته!! يا قاتل تنين اليأس بثورته، إنّك القُطب والبدل الحق في الآخرين، وإنك لمن الأولياء ومن الأبطال الخالدين سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين

•••

إن شكت الناسُ من الأدواء فالأبطال لا يشكون. وإن وهن المرضى حين العلة فالأبطال لا يهنون. فكأن القوم أرواح لا أجسام، وشكاة أو سقم لا يغزو إلا الجسم. وقد أنساب إلى ابراهيم صل سل شرقي فما روعه. وسرى في الحي سل صل غربي فما فَزَعه. ولقد أقام حليف الصبر، شديد البأس، شجاع العزم يُقاوم السلّين، ويكافح الصلين وهو يردد:

لي مدة لا بد أبلغها

معلومة، فإذا أنقضت مت

لو ساورتني الأسد ضارية

لغلبتها إن لم يج الوقت

ومات مُردي التنين يوم جاء الأجل «وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إلا بِإِذْنِ اللهِ.» كمثل موتِ الغالبين.

سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين.

طريـق (أبي طـارق) واضـح للسـالكين. وبعـد (إبراهيـم) في الحـي إبراهيمون. فـلا يفرحـن ولا يمرحـن طارئـون ومسـتبشرون. هنـاك شـيوخ، هنـاك كهـول، هنـاك شـباب مُستبسـلون. هنـاك نضـال، هنـاك نـزال، هنـاك قتـال حتـى يفـوز المؤمنـون.

سـلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين

إن العـرب كلهـم في حـبّ العربيـة مخلصـون. وإن المسـلمين بأجمعهـم صادقـون. فـلا تقفـون بقفيـة، بكبـيرة أحـدا. إنَّ مضـادّك اليـوم في الخطـة والبرنامـج - وان كان مُزاحـرك - هـو الظهـير والمـمالي

والمعـين غـدًا. إن عنـد الحـوازب والشـدائدِ يَبيـدُ حقـد الحاقديـن. وإن في التصـافي بعـد التعـادي والتلاقـي بعـد تلـك الصدّعـات في مـصر- وإن كان ضغطـة، ورُبِّ «قـوم يقـادون إلى الجنـة بالسلاسـل» - فـإن في ذلـك «آيـة بينـة لقـوم يعقلـون » سـلام عـلى إبراهيـم. كذلـك نجـزي المحسـنين

كان مجـد وإنـه ليعـود. ومـن سـاد في القديـم - ورام العـلاء- فـلا بـد أن يسـود. وألـف سـنة في العـز والسـلطان لـن تذهـب سـدى. وكتـاب اللـه نتلـوه كل يـوم وفيـه تحريـض، وفيـه تحضيـض، وفيـه تذكـير، وفيـه تبشـير، وفيـه الضيـاء، وفيـه الهـدى. «فَمَـنْ تَبِـعَ هُـدَايَ فَـلَا خَـوْفٌ عَلَيْهِـمْ، وَلَا هُـمْ يَحْزَنُـونَ.»

سـلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين

•••

إن آمـن بظلـم الظالمـين جميـع العالمـين فالعـرب والمسـلمون بـه كافـرون. وإن دانـت كل أمـة بديـن الهـوان فقـوم (محمـد) لا يدينـون. وإن حبـب إلى النـاس الصغـار والخنـوع كتـاب الـروم، وكتـاب الهنـد،

وكتـاب الصين ففي كتاب الله: «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُـولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ.»

«فَمَـنْ أَعْتَـدَى عَلَيْكُـمْ فَاعْتَـدُوا عَلَيْـهِ بِمِثْـلِ مَـا اعْتَـدَى عَلَيْكُـمْ» إِنْ اللـه ليسـخط عـلى مُـذلّي أنفسـهم ومُظلمـين وراضـين بجـور سـخطه عـلى جائرين و«لـولا مـن يقبـل الجـور لم يكـن مـن يجـور» حكمـة سـائرة في الأولـين.

سـلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين

محمـد والعـرب والمسـلمون هـم هـداة العالمـين. وإن نُـوب الغربيـون اليـوم في العلـم والمدنيـة فانطقـوا الجـماد، وسـخروا الريـح وهـذا الهـواء وبهـروا وسـحروا متعفرتـين (مثـل العفاريـت) بمـا ابتدعـوا - أعـين الناظريـن، وسـمع السـامعين - فالفضـل في (كتـاب الارتقـاء) للمتقدمـين، والسـابقين الأولـين. ولـولا المعلمـون مـا علـم الجاهلـون. فـلا يتيهـنَّ عـلى مرشـديهم مسـتكبرون متغطرسـون.

سـلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين

•••

لـولا محمـد والعـرب والمسـلمون مـا تقـدم في الدهـر الغربيـون. ولقـد رأينـا نموذجـات مـن المصطفـين الأخيـار منهـم في الأجـواق والبعـوث مـن الصليبيـين فـإذا الغبـاوة والفدامـة والأغتـام الجاهلـون. وإن قـال مادحـون مقرضـون: إنهـم كانـوا أشـداء مقاتلـين. فقـوم جنكـز وهولاكـو وتمرلنـك

كانـوا أشـداء مقاتلـين. وإن وحـش الفـلا لأشـدُّ قـوةً وأشـد بطشًـا مـن الأناسـين أو الآدميـين. وإن نجهـر بالقـول الحـق فليـس ثـم مكذبـون. إن العالمـين، بـه لمعترفـون. وهـل أحيينـا النـاس كـما يميتونـا؟! وهـل هديناهـم حتـى يُضلونـا؟! وهـل حررناهـم مـن رق الجهـل ليسـتعبدونا؟! وهـل هـذا الـذي نلاقـي اليـوم جـزاء المفضلـين في العلـم والديـن؟

سـلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين

•••

لعـن الذيـن أعطـوا (إبراهيـم) ميثاقـا غليظًـا، «وقالـوا لا تخـف وَلَا تَحْـزَنْ» إنـك آمـن في فلسـطين، ثـم نقضـوا الميثـاق، ولم يوفـوا بالعهـد «فيـما نقضهـم ميثاقَهُـمْ لَعَنَّاهُـمْ» «كَـمَا لَعَنَّـا أَصْحَـابَ السَّـبْتِ وَالَّذِيـنَ يَنقُضُـونَ عَهْـدَ اللـه مـن بَعـدِ مِيثَاقِـهِ، وَيَقْطَعُـونَ مَـا أَمَـرَ اللَّـهُ بِـهِ أَنْ يُوصَـلَ ويُفسـدونَ في الأَرْضِ. اولئـكَ لَهُـمُ اللَّعْنَـةُ، وَلَهُـمْ سـوء الـدار» إن الذيـن خانـوا إبراهيـم لمقبحـون ومجرمـون. وإن الذيـن يحفـرون ذممهـم لهـم خبـث العالمـين. وإنكـم (يـالَ غُـدَر) في الجحيـم، جحيـم المذمـة خالـدون.

سـلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين

•••

أبـا طـارق، إبراهيـم! قـد تقربـت في الأمـس إلى الإسـلامية والعربيـة والبطولة والوطنيـة بخدمتـك في سـجنك، في السـجن في (بيـت المقـدس) في حياتـك، وهجـت لـك الدنيـا بالـبَرْقِ بالابـراق، وثورتهـا عـلى الغادريـن. وهأنـذا أجيـب اليـوم داعـي رجـال الوطنيـة في الشـام فايمـم - عجـلان لا متلومًـا- دار معاويـة والأمويـين لتأبينـك في المؤبنـين. إني للصادقـين الطيبـين المخلصـين

مـن المشـايعين والمتابعـين. وإني للأبطـال العبقريـين مـن المبجلـين والمرجبـين ومـن الهائمـين بعبقريتهـم والمغرمـين. وإني لخـدام الإسـلام، الإسـلام الصحيـح، ديـن محمـد - مـن الخادمـين. ولـن أرضى مـن هـذه الخلائـق والطرائـق بملـك ملـوك أو مملكـين. وإني في الدنيـا بذلـك لسـعيد والمـرء يحـشر مـع أحبابـه يـوم الديـن.

سـلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين

العربيَّة وشاعرها الأكبر

أحمد شوقي

اللُّغة العربيّة

والأستاذ الرّيحاني

العربيَّة في المدرسة

من إنشاء

إسعاف النّشاشيبي

المفتّش العام للُّغة العربيَّة في إدارة معارف فلسـطين

والعضو في المجمع العلمي العربيّ في الشّـام

«حقّ الطّبع محفوظ»

سنة ١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م

«ثمن النّسـخة ثلاثة قروش مصريّة»

أهدي

هذا الكتاب

إلى

مصر

مصدر العلم والمدنية

وموئل العرب والعربيّة

محمد إسعاف النّشاشيبي

كتاب كريم

•••

تشرفت بإهداء نسخة من كتابي (كلمة في اللغة العربية) إلى حضرة الأستاذ العربي الكبير، والزعيم العظيم، القاضي العادل، المثل الأعلى في الإخلاص والوطنية. رجل الشرق خليفة سعد، صاحب الدولة (مصطفى النحاس باشا) رئيس الوزراء في المملكة المصرية فأرسل إليَّ بهذا الكتاب الكريم:

«حضرة الأستاذ العالم اسعاف النشاشيبي بك

تصفحت كتابكم (كلمة في اللغة العربية) الذي تفضلتم بإهدائه إليّ ولقد كان يسرني أن أستمع لما تلهمون، وأنتم تحاضرون، فقد عرفناكم في مواقفكم الخطابية تهزون القلوب، وتحركون الاحساسات، وتثيرون كوامن الذكريات بصوت متهدج يفيض روعة وعذوبة ويوحي إلى السامعين ما طبعتم عليه من شغف باللغة، وتفان في إعزازها وإنهاضها وإن فاتني الاستماع فإنه لم يفتني أن أنعم بمعانيك وأساليبك فأرى فيهما صورة نفسك التواقة، ومثال همتك الحافزة، وغيرتك الملتهبة

وإنّ الأمة التي لا تحفل بلغتها، ولا تعنى بترقيها مقضى عليها بالفناء ومن أجل هذا أحيي في شخصك رجلًا بارًا بلغته، كريمًا في نحيزته وسلام عليك من شاكر لك مثن على علمك»

مصطفى النحاس

العربيَّة وشاعرها الأكبر

أحمد شوقي

•••

هـذه خطبـة قلتهـا في القاهـرة - حـاضرة المملكـة المصريـة وحـاضرة الأمـم العربيـة اللغويـة - في مهرجـان حـضرة صاحـب السـعادة «أحمـد شـوقي بـك» العضـو في مجلـس الشـيوخ في اليـوم الثامـن عـشر مـن شـهر شـوال سـنة ثلثمائـة وخمـس وأربعـين بعـد الألـف ونشرتهـا كلهـا مـن صحـف القاهــرة الكبــيرة ومجلاتهــا الأهــرام وكوكــب الــشرق والسياســة والمنــار الإسـلامي.

وقـد كان هـذا المهرجـان أعظـم عيـد عـربي أدبي عرفتـه العربيـة منـذ كانـت العربيـة.

وقـد لبـث أسـبوعًا كامـلًا. وكان في رعايـة حـضرة صاحـب الجلالـة فـؤاد الأول ملـك مـصر (أظفرهـا اللـه عـلى عهـده بمرغبهـا وأيدهـا وأيـده بـروح منـه) ورئاسـة فقيـد العربيـة والـشرق البطـل الخالـد «سـعد زغلـول».

وأعلـم أن الداعـي إلى هـذا العيـد هـو ظهـور أكـبر شـاعر عـربي بعـد أحمـد بـن الحسـين المعـروف بالمتنبـي في هـذا الزمـان.

ولمـا أن كانـت هـذه الخطبـة ذوب روحـي وكانـت قـد خرجـت مـن أعـماق قلبـي (كـما نعـت كارليـل الـكلام الـذي نعتـه) وكانـت قـد كتبـت بدمـي (كـما يطلـب نقشـه ممـن يكتـب) وكان فيهـا صـدق صاحبهـا. واجتافهـا

إخـلاص الحـب للعربيـة. وتخلّـص منشـيها إذ أنشـأها مـن كل تقليـد في القـول وعبوديـة. وافتتحـت بذلـك الابتـداء واختتمـت بتلـك الخاتمـة وكان بينهـما هاتيـك الأحاديـث. فلـما أن كانـت كذلـك روى لي الصـادق أن قـد صحبهـا في مـصر عنـد أهـل الفضـل التوفيـق «ومـا توفيقـي إلا باللـه» وبمحمـد وبقرآنـه.

الخطبة

•••

ليست دار العربية رمال الدهناء أو هضبات نجد أو الحجاز أو إقليم الشام أو أرض العراق بل دارها كل مكان ينطق بالضاد أهله ويتلو فيه كتاب محمد (صلوات الله عليه) قراؤه. وأقوى القوم عربية بل العرب العرباء أعرفُهم بأدب العربية. فأهل مصر إذًا هم القبيل المقدّم في العربية وهم سادات العرب.

وليست اللغة العربية يأيها الراجع من لندن أو من برلين أو من باريس وقد لبث في تلك المدائن حينًا ففتنته مدنية المغاربة السحرة ليست اللغة العربية بلغة بدوية، بلغة صحراوية حتى تعرض عنها إعراضك هذا وحتى تؤثر عليها غيرها حين جهلتها ولكنها لغة سامية سامية (إن كان ثمة سام) قد نشأت من قبل في جنات النعيم عند دجلة ولم تنبت في القفر فتظمأ وتضحى وقد جاورت كل ذات مدنية «وإن العلا تعدى» كما قال أبو تمام، وقد سطر أيوب الصابر بها في ذلك الزمان سفره أو قصيدته (كما قال فولتير في المعجم الفلسفي) وسفر أيوب أجمل سفر في التوراة وأيوب العربي كهومير هو من أكبر شعراء العالم.

ثم جاءت هذه اللغة مواطن الحجاز (وكم في الهجرات من خيرات) فنشأها الدهر هنا أفضل تنشئة وهذبها خير تهذيب. وإن البيئة التي أخرجت في الدنيا عظيمها هي التي جلّت لغته ولن تكون لغة ذلك العظيم لغة محمد إلا عظمية على أن قد تخبث البيئة بعد طيبها

وصلاحها فلا تقذف إلا خبثًا «وَالَّذِي خَبثَ لا يَخْرُجُ إلا نَكِدا» كما قال الله.

ليست العربية بلغة بدوية صحراوية (كما قالوا لك) بل هي اللغة الحضرية كل الحضرية بل هي (إن استكثرت هذا النعت) لغة الأناسية الكملة الألى سوف يخلفون هذا الإنسان بعد أزمان كما خلف هو قدمًا الذين هم أدنى منه من جماعة القرود المحاكية.

ولقد دعا العربية من قبل قرآنها (وهو القرآن هو القرآن) لتكتب معجزاته فما وهنت ولا عجزت ولا ضاقت بل اتسعت وهذا الكتاب وهذه آياته، وهذه ألفاظ في المصاحف تتكلم، وهذه معاني الكتاب، الكتاب العبقري كتاب الدهر قد تجسدت وتجسّمت وعهدنا بالمعاني معنوية لا تتجسم. فلن تعجز لغة كتب بها إله كتابه عن أن يكتب بها البشر.

ولقد دعا العربية في الزمان الأول كل علم وكل فن - ولا كتاب علم واحدًا عند القوم في ذاك الوقت - فلباهما منها خيرُ نَدْب وخير ظهير وشهد الأقوامُ في بُرهة من الدهر أكداسًا من الكتب مكدسة بل أجبالًا. قال غوستاف لوبون في فاتحة كتابه مدنية العرب: (إذا بحث الباحث عن آثار العرب في العلم وعما ابتدعوه علم أن ليس هناك أمة ضارعتهم فجاءت في الزمن القصير بمثل صنعهم الكبير)

فلو لم يكُ عند العربية عساكر من الثروة في اللفظ والأسلوب ما أنفقت هذا الإنفاق على علوم أصحابها وعلوم سواهم. والفقير المسكين في الدنيا (يا صاحب) لا يقدر أن يعول نفسَه بَلْه أن يمونَ الناس.

وقد فرق النتر طوائف من تلكم الكتب في النهر، وحرق الإسبان نفائس منها بالنار؛ لكن الباقي (والحمد لله) كثير. وجلّت العرب عن أن تجرم إجرام ذينك الجيلين. وكذاب أي كذاب من قال إنا حرقنا دار كتب في الإسكندرية. وكيف يقرفنا القارفون بهذا ظلمًا. وما ندب الناس إلى العلم كمثل كتابكم كتاب، ولا دعا إلى التفكير وحب الدنيا كزعيمكم محمد زعيم.

وأوى إلى هذه العربية في آونة كثيرات كل أديب وكل عالم وكل شاعر وكل كاتب فبوأت معانيهم في أكرم مبوأ، وألبستها أفتن ثوب وقرتها (وهي المضيافة وهي الكريمة بنت الكرام) خير قرى فاجتلى الناس من تلكم المعاني السماويات في هذه الحلل العدنيات حورًا عينًا رضوانيات، فإذا لاقيتم في عصور المولدين أو في عصور المتأخرين قبحًا في القول يمض الأذن أن تسمعه وتقتحمه العين إما أبصرته، وإذا ألفيتم كلامًا بهرجا قد وهت أعضاده وتشوه تركيبه وفقد ذاك الرونق، وإذا وجدتم شعرًا سخيفًا قد عميت معانيه وقد استعجم على تاليه، وإذا سمعتم سجعًا غير طبيعي مرتجًا زحافًا متدحرجًا قد لعنته العربية.

إذا وجدتم ذلك فلا تلومن العربية ولا تتنقصنها ولوموا أمة ضعفت فضعف قولها وذلت فذل شعرها وحارت في دنياها فاستحار كلامها.

لا تلومـوا العربيـة ولومـوا أمـة ركضـت إلى الدعـة (قبـح اللـه الدعـة) ثـم قعـدت

ليـس المروءة أن تبيت منعما

وتظـل معتكفا على الأقداح

مـا للرجال وللتنعم إنما

خُلقـوا ليوم (عظيمة) وكفاح

«والحركـة (كـما قالـوا) ولـود والسـكون عاقـر» وقـد قـال أبيقـور: أي معنـى للكـون بالسـلم بفقـدان الحركـة. ولام هـذا الحكيـم (المظلـوم واللـه بتلـك التهمـة) هومـير حـين سـأل الآلهـة أن تصطلـح كي تـزول الحـروب

إذا المرء لم يغش الكريهة أوشـكت

حبـال الهوينا بالفتى أن تقطعا

وفريدريـك نيتشـه، يـرى أن عمـل الرجـال إنمـا هـو القتـال وعمـل النسـاء هـو تمريـض الجرحـى ولا عمـل لهـما غـير هـذا.

وليـس القصـد يـا بنـي أن تغلـب أو أن تُغلـب بـل القصـد أن تكـون حـرب، أن تكـون حركـة

ألا أيهـا الباغي البراز تقربن

أسـاقك بالموت الدعافَ المقشبَا

فما في تسـاقي الموت في الحرب سُبة

على شـاربيه فاسقني منه واشربا

لا تلوموا العربية ولوموا أمة تعبدها حاكمها وتفرعن عليها و«استجاز كيدها وعدا مصالحها» كما قال ذاك الشيخ فلم تغضب ولم تمش إليه بالسيف. وقد علم أوائلها التلميذ الثاني لشائد الوحدة العربية طريقة تقويم الملوك.

لا تلوموا العربية ولوموا أمة صغرت همها وتضاءلت عزائمها وتهزعت (تكسرت) أخلاقها (يا أسفي على صوادق الأخلاق يا أسفي على الأخلاق الجيدة) وكان أبن الخطاب يقول لها: «لا تصغرن همكم فإني لم أر أقعد عن المكرمات من صغر الهمم» وكان معاوية كاتب وحي النبي يقول: «يا قوم إن الله قد اختاركم من الناس وصفاكم من الأمم كما تصفى الفضة البيضاء من خبثها فصونوا أخلاقكم ولا تدنّسوا أعراضكم فإن الحسن منكم أحسن لقربكم منه والقبيح منكم أقبح لبعدكم عنه.»

لا تلوموا العربية ولوموا أمة اجتزأت بالقليل وقنعت من دهرها بالدون وأنامها (قتلها) هذا القول الخبيث الأفيوني الكوكييني «القناعة كنز لا يفنى» وكانت ما ترضى قبل من شيء الكثير وكانت ما تقبل حالًا وسطًا. لا شيء أوكل شيء كما يريد نتشه:

ونحن أناس لا توسط بيننا

لنا الصدر دون العالمين أو القبر

وقالوا عليك وسيط الأمور

فقلت لهم أكره الأوسطا

وكان دستورها في دنياها «القناعة من طباع البهائم» و«عليك بكل أمر فيه مزلقة ومهلكة»، أي بجسام الأمور، وصاحب هذا القول الكريم.

هو ابن مصر صاحب رسول الله سيدنا عمرو بن العاص (سلام الله عليه ورضوانه)

وقد راع تقهقر هذه الأمة وتدهورها حين تقهقرت وتدهورت شاعريها الأكبرين في عهد انحطاطها فأنكرا الحال واستفظعاها وراح ابن الحسين يقول:

أحق عاف بدمعك الهمم

أحدث شيء عهدًا بها القدم

وإنما الناسُ بالملوك وما

تفلح عرب ملوكها عجم

لا أدب عندهم ولا حَسَبٌ

ولا عهود لهم ولا ذمم

في كل أرض وطئتها أمم

ترعى بعبد كأنها غنم

وقعد رهين المحبسين في كسر بيته يردد مبتئسًا

يكفيك حزنًا ذهاب الصالحين معًا

وأننا بعدهم في الأرض قطانُ

إن العراق وإن الشـام مذ زمن

صفران ما بهما (للعدل) سـلطان

سـاس الأنام شياطين مسلّطة

في كل قطر من الوالين شـيطان

من ليـس يحفل خمص الناس كلهم

إن بـات يشرب خمرًا وهو مبطان

متى يقوم (زعيم) يسـتقيد لنا

فتعـرف العدل أجبال وغيطان

صلـوا بحيث أردتم فالبلاد أذى

كأنمـا كلها للإبل أعطان

فليسـت اللغـة العربيـة (والحالـة في تلكـم العصـور كـما سـمعتم عنهـا) بمسـتأهلة أن تـلام أو أن تعـاب. فإنهـا لابسـت ضعفـاء فلبسـت كسـاء ضعـف، وعـاشرت وضعـاء فارتـدت شـعار ضَعـة. ومـا الضعـف ومـا الضعـة (واللـه) مـن خلائقهـا.

ولـو اسـتمرت تلـك القـوة ولـو اسـتمرت تلـك المدنيـة، ولـو لم يكـن مـا كتـب في اللـوح أن يكـون، لمـلأت بدائـع العربيـة الدنيـا فإنهـا معـدن البدائـع ومنجـم كل عبقـري رائـع.

عـلى أن لغـة العلـم في العربيـة (والعلـم لغـة ولـلأدب لغـة) لم تضـم ضيـم أختهـا. ومـا المقاصـد والمواقـف وشرحاهـما وأقـوال ابـن الخطيـب ومقدمـة

ابـن خلـدون (عـلى مغربيتهـا) وكلهـا في العصـور المتأخـرة بالتـي تـذم (في أسـلوب اللغـة العلمـي) جملتهـا.

ويُخيـل إليَّ أن نفـوس الحكـماء العلـماء تكـون في أحايـين الضعـف أقـوى مـن نفـوس الأدبـاء فـلا تهـن وهنهـا ولا تهـون هـو أنهـا أو كأن العلـماء في الدنيـا، وليسـوا في الدنيـا، ومـن النـاس وليسـوا مـن النـاس. وقـد يلاقـي هـؤلاء القـوم المسـاكين ربهـم ولا أثـر لحـوادث دهرهـم فيهـم وقـد يتقحمـون ميادِيـن الحيـاة فيتأخـرون ولا يتقدمـون وكل منهـم ينشـد متحـسرًا

وأخرني دهري وقدم معشرًا

عـلى أنهم لا يعلمون وأعلم

يئسـت من اكتساب الخير لما

رأيت الخير وفر للشرار

وربمـا لبسـوا التبـان للمصارعـة فيُصرعـون وقـد نـازل أمـس صاحبنـا (ولسـن) ذينـك العفريتـين (لويـد جـورج وكلمنصـو) فعقـلاه عقلـة في السياسـة شـغزبية فصرعـاه سريعًـا «فرجـع مـوسى إلى قومـه غضبـان أسـفًا» كـما قـال اللـه. وأضحـى عنـد جميـع النـاس ضُحكـة ثـم قـضى كمـدًا

أين الأمم المحررة يا ولسـن؟

ليسـت العربيـة يـا سـادة بالمقـصرة ولا العاجـزة وليـس الضعـف وليـس العجـز وليـس القبـح مـن طبائعهـا وقـد كانـت تنشـد في هـذا الدهـر الأطـول في أرجـاء الأرض كافـة همـمًا بعيـدات ونفوسًـا سريـات أبيـات وارتقـاء في أمـة عربيـة وعـلاء كيـما تتجـلى في الدنيـا تجليهـا وكي تـضيء.

كعادتها إضاءتها، فلما ألفت في أرض مصر مرغبها لما وجدت (محمدًا ومحمودًا) ظهرت بل ائتلقت بل قد تحاقر عند ضياها نور الشمس فكان (يوم التجلي) كما يقول إخواننا النصارى وكان عيده. وأصبحت الدنيا وقد علت كلمة العربية وأعلن الدهر سلطانها

وغدا محمود سامي يحمل علم الشعر ويبشر الحال برسول في القريض يأتي من بعد محمود أسمه (أحمد) ولا تسأل يا هذا قوة سامي الشعرية أن تعطيك أكثر مما أعطتك فبحسبك ما أخذت وحسب الرجل ما جاء منه، ولا تجود يد إلا بما تجد

وغدا الشيخ محمد عبده يحمل علم النثر. ويد جمال الدين عند محمد وعند العربية وعند مصر وعند المشرق لا تكفر

فاذكر في الكتاب جمال الدين:

وأثن عليه بالذي هو أهله

ولا تكفرنه لا فَلاح الكافر

إن جمال الدين لم يك شخصًا فذًا. إن جمال الدين كان أمة. وإنه لم يتنبه من أمم الشرق في ذاك الوقت إلا أمتان لا ثالثة معهما: الأولى هي الأمة اليابانية، والأمة الثانية هي جمال الدين. فجمال الدين أمة وحده، وقد أراد ابن الحريري في البدء أن يقتل الأستاذ الإمام فنجاه كتاب الله وحديث رسول الله منه. فأرجع يا فتى إلى أسلوب القرون الثلاثة الأولى إلى الأسلوب الطبيعي العربي، إلى الأسلوب الباريسي، إلى أسلوب القرن العشرين بل الثلاثين بل الأربعين؛ وانبذ انبذ مقامات

الحريري ومقامات الهمذاني وما شاكلها ولا تتصفحنها إمَّا ابتغيت تعرفها إلا خائفًا وحذاريك أن يستعبدك متقدم في الزمان أو متأخر وإياك وأن تقلد في القول أحدًا فالمقلد عبد ولا يرضى بالعبودية حر والعاقل لا يهب كينونته لسواه وأن ساواه أو علاه وبعضهم لا يهبها الله (عز وجل) والتقليد عدم والاستقلال كون فلا يؤثر على الثاني الأول إلا أحمق.

وقد دارت حول الأستاذ الإمام «العبارات الفقهية والقوانين العلمية الخارجة عن أسلوب البلاغة والنازلة عن الطبقة» كما يقول أبن خلدون فما استطاعت لبلاغته إضرارًا «ولا خدشت لملكته وجهًا»

ولا يضر الفقهاء وأهل العلوم تقصيرهم في هذا النمط من البلاغة فللعلم (كما ذكرت آنفًا) لغة وللأدب لغة. قال ابن أبي الحديد في شرح النهج: «وقد استعملت في كثير من فصوله فيما يتعلق بكلام المتكلمين والحكماء خاصة ألفاظ القوم مع علمي بأن العربية لا تجيزها» وقال أيضًا «استهجنا تبديل ألفاظهم وتغيير عباراتهم فمن كلم قومًا كلمهم باصطلاحهم ومن دخل ظفار حمّر».

وقد كتب الأستاذ في العلم بلغة الأدب (كدأب هنري بركسن فيلسوف فرنسا وكفلا مريون العالم في الفلك) فراحت رسالته في التوحيد في ذاك العصر معجزة.

ظهر محمد وظهر محمود فتقوت العربية بعد أن تضعفها الخصوم وتعززت بعد إذلال فغدا الدهر عند ذلك يعبد لنابغة يطلع على الدنيا طريقة.

ومن سنن الله ومن دساتير الطبيعة ألا يفاجئ، نابغة أو عظيم فيما قدر له أن ينبغ أو يعظم فيه قومه مفاجأة دون أن يستعدوا له، إذ النابغة في شيء ما إنما هو جوهر أمته، ولا يُلخص خير إلا من خير وما حدث كون عن عدم. وقد أشار إلى مثل هذا واضع علم الاجتماع ابن خلدون حين ذكر أمر الرسالة المقدسة.

غدا الدهر يعبد لنابغة في القريض يطلع على الدنيا طريقة، وغدا أهل الدهر يرتقبون شعرًا يُسمى شعر النبوغ قد عدموه منذ عصور ولم يجئ من بعد القرون الثلاثة الأولى ومن بعد الذي يقول:

وما تسع الأيام علمي بأمرها

وما تُحسن الأيام تكتب ما أملى

إلا مقصدات معدودات وإلا مقطعات قليلات وأبيات نوادر

غدا أهل الدهر يرتقبون شعرًا يُشع مثل الماس إشعاعًا ويزهر كالدرارى المتوهجة زهورًا بل يُضيء كما تضيء الشمس وقد جمل بل قد تجسم من الجمال وقد نوره القرءان فبان بيانًا غدا أهل

الدهـر يرتقبـون شـعرًا هـو فـوق الشـعر، وكلامًـا هـو فـوق الـكلام. كان ابـن نباتـة السـعدي قـد سـمع مثلـه مـن شـعر أحمـد بـن الحسـين (المتنبـي) فقـال: «نحسـن أن نقـول ولكـن مثـل هـذا لا نقـول » شـعرًا متنبيًـا غوتيًـا شكسـبيريًا يعلـق بالخلـود أو يعلـق بـه الخلـود إذا قيـل وينشـده الدهـر الناقـد إذا سـمعه.

انتظـرت الأم العربيـة برهـة هـذا الشـعر النابـغ وخـروج هـذا الشـاعر والأقـوام كلهـم أجمعـون متطالـون والأعنـاق مشرئبـة والوجـوه النـاضرة كـما قـال اللـه: «وجـوه يومئـذ مسـفرة ضاحكـة مسـتبشرة» والعيـون ناظـرة شـاخصة والقلـوب في الصـدور راقصـة والدهـر الـذي قـد ضَـنَّ أمـس وجـاد اليـوم يبتسـم.

فتبلـج (وقـد تفتحـت أبـواب السـماء بالدعـاء) نـور «أحمـد» يمـلأ الدنيـا وطلـع عـلى أهلهـا «شـوقي»:

حتـى طلعت بضوء وجهك فانجلت

تلـك الدجى وإنجاب ذاك العثير

فافـتن فيك الناظرون فإصبع

يومًـا إليك بها وعين تنظر

يجـدون رؤيتك التي فازوا بها

مـن أنعم الله التي لا تُكفر

وظهـرت معـه أمـة اللغـة العربيـة آخـذةً بيمينـه وقـد انحـدرت مـن مقلتيهـا دمعتـان «ومـن الـسرور بـكاء» كـما قـال المتنبـي.

جاء (أحمد شوقي) وقد أضاء عصر الكهرباء وخرج هؤلاء العفاريت من الافرنج يسحرون الناس بالذي يأتونه وإن أعمالهم (والله) لساحرة، وإن مبتدعاتهم (كظلمهم العبقري) عبقرية باهرة، وأقبلت هذه المدنية الغربية ناسخة المدنيات وصاحبة المعجزات المجننات

وما هو إلا أن تراها (بدارها)

فتبهت، لا عرف لديك ولا نكر

مدنية عجيبة مدهشة قد حار في أمرها القائلون فما يقولون وقد أعجزت شعراءها فما عادوا يبدعون كما كانوا يبدعون وقل أو اضمحل فيهم في الشعر النابغون فلم يعزز شكسبير وغوتة في الغرب بثالث.

جاء ذلك وجاء أحمد شوقي فما فر من أمام ما شهد فرار الجبان ولا أفحم إفحام العاجز بل مشي مشية الليث (كمشى ذاك الحماسي) ونادى لغته العربية فأجابته، وأهاب بقوته الشعرية فلبته

هما عتادي الكافيان فقد ما

أعدَدتُه فلينا على من نأى

فجاء في الشعر بهذا السحر اللذ رأيتموه وقال ذلك القول اللذ سمعتموه وقذف بالشطر بنصف البيت قد اجتافه تاريخ أمة.

وسير البيت يعرض فيه للناظرين السامعين دولة وابتده القصيدة في شأن فهاج قبيلًا أو أهدأ قبيلًا أو نشط لما يُعلى أو ثبط عما يُدني فذهبت تلك القصيدة في الناس دستورًا.

وغـاص وحلـق «فـأتى (كـما قـال ابـن الأثـير في حـق حبيـب) بـكل معنـى مبتكـر لم يمـش فيـه عـلى أثـر».

وعـرف الـشرق وعـرف الغـرب وعـرف العـصر (وقـد جهـل غـيره عـصره) واكتنـه سر التأخـر والتقـدم فأعطـى الحقيقـة في الشـعر وهـدى بالكلـم الطيـب ذي الحكمـة إلى الطريـق الأقـوم.

فكـن كشـوقي يـا شـاعرًا في هـذا العـصر فشـيّع المجـاز بالحقيقـة (عـلى أن ليسـت حقيقـة هـذا الكـون (واللـه) إلا مجـازًا) وأعلـم أن علـم الاقدمـين دينهـم وديـن المعاصريـن خاصتهـم علمهـم «ولـكل أجـل كتـاب» كـما قـال اللـه، وأن الدهـر دهـر حقائـق بـل لا تثبـت الحقيقـة فيـه إلا في دار الاختبـار بالشـهود العـدول وأن الحـال كـما قـال ذاك الشـيخ ذاك الشـاك

فقلنـا للهزبر أأنت ليث؟

فشـك وقال عليَّ أو كأني

فخلـق حـين التحليـق في طيـارة وغـص عنـد الغـوص في غواصـة ونـاج حبيبـك بالمـسرة اللاسـلكية أو (بالـرادي) فإنهـما أسرع مـن خاطرك.

ورب معـان يهمهـم بهـا الزمـان همهمـة ولا يفصـح وتختلـج في الصـدور ولا تبـدو ويجهلهـا العـالم وهـي منـه مقتربـة وتغيـب عـن الألمعـي وهـي لم تبعـد عنـه قـد اجتذبتهـا قـوة شـوقي الشـعرية وبينتهـا أي التبيـين للعالمـين فعجـب النـاس بـل مـا كادوا يقضـون العجـب.

وقـد حالـف قصيـد أبي عـلى الفـن محالفـة صـدق فاتضـح اتضاحًـا وتآخـت أبياتـه تآخيًـا فهـي بنـو أعيـان لا بنـو عـلات ولا أخيـاف ولا أبنـاء عـم

وتعانقت معانيه عناق العاشقين وتجلت مقاصده وصرحت صراحة الوطني ذي الإخلاص.

وقد جمله وقواه وخلده، عربيته، متانته، لغته، ديباجته، وإن لهذا كما للمعنى لقدرًا وإن له لبهجة وإن له في النفوس لأثرًا. وإنما المعنى واللفظ شيء واحد فهما كالجسم والنفس والنفس والجسم كائن فرد لا كائنان متباينان.

واللفظ والمعنى كمادة الكون وقوته فليس هناك مادة قد انفرقت عن القوة وليس هناك قوة قد زايلت المادة كما يقول (كنت) وغير كنت من المثنويين أو الأثنيين.

عمدتم لرأي المثنوية بعدما

جرت لذة التوحيد في اللهوات

ليس ثمة مفترقان إن هناك إلا اتصال إن هناك إلا الوحدة كما يقول محي الدين وسبينوزا وإرنست هيكل.

إذا تبدى حبيبي

بأي عين أراه

بعينه لا بعيني

فما يراه سواه

بل ليس هذان المعدودان اثنين (أي اللفظ والمعنى) إلا صاحبهما يتجلّى فيهما ومن أجل ذلك يضعف قول أو يقوى ويقبح أو يجمل ويصغر

أو يكبر ويلتبس أو يتضح. واتل أقوال الأم العربية في كل عصر تنبئك بأحوالها فأحوالها المتغيرة ذات الضعف وذات القوة هي في أقوالها فاعرف أقوالها تعرف أحوالها.

وإذا لم يتجل ذو القول في قوله فليس بذي كينونة وأنه لسواه والعدم وما قوله قولًا.

وإذا تشاكس ذات مرة لفظ قول ومعناه فما هو إلا مخلوق مشيًا نعوذ بالله من مرآه.

وأني أقسم بالقرآن وبلاغته وإعجازه وعبقريته وعجائبه التي لن تحصى أن لو لم يكرم لفظ شوقي في الشعر كما كرم معناه، ولو لم تشرق هذي الديباجة الشوقية المليحة ذات الحفلة ذلك الإشراق ما كان أحمد شوقي شاعر العربية الأكبر وما كان ملك الشعر وما كنتم أظفرتموه بهذا اليوم. ولكنه عاقل حكيم عرف كيف يقول وكيف يبني قصيده ويشيد أهرامه ليخلد فيها وقد قلت قدمًا: «ما يقي المعاني من الدثور إلا متانة ألفاظها وما يخدمها الدهور إلا تحقيق كلامها» والدهر أثبت ما كنت قد قلته.

وما التجدد يا قوم بصاد صاحبه عن الاحتفال في اللغة الأدبية بديباجة القول وإحكامه وصيانته من كل خلل وتجليه أنيقًا ذا نضارة طبيعيًا عربيًا بل التجدد يحدو على ذلك لأن التجدد أخو التقدم وخصيم التأخر.

ومـن التجدد أن تهيم بالفن وهذا فن.

ومـن التجـدد أن تقول القول الجيـد المضبوط ليفهم الناس ما تقول.

ومـن التجـدد أن تختـار خـير طريـق في الإنشـاء والقريـض فتسـير فيهـما مسـتقلًا لتبلـغ وتبلـغ قومـك مـن الارتقـاء مـا يجـب بلوغـه.

ومـن التجـدد أن تشـيد الأمـة المتنبهـة بنيانهـا عـلى الأسـاس القـوي لئـلا ينهـار.

ومـن التجـدد أن تتقـن يـا هـذا مـا تعمـل وترضُـنَ مـا تعلـم وأن تعـد لـكل أمـر عدتـه وللكتابـة والشـعر عـدد فقـل لي هـل أعددتهـا؟

ومـن التجـدد أن يعلـم أنـه لا يجـيء مـن الضعـف والانحطـاط إلا الضعـف والانحطـاط ولا يجـيء مـن القـوة والتقـدم إلا القـوة والتقـدم والمتجـدد الأريـب إنمـا يريـد أن يـزداد قـوة وتقدمًـا.

ومـن التجـدد أن يعـرف مـن يـروم تغيـرًا كيـف يغـير فـلا يـدع الحسـن المجمـع عـلى حسـنه إلى قبيـح لا ريـب في قبحـه.

ولقـد أبهـج كل أديـب عـربي أن عـرف المجـددون في مـصر كيـف يجـددون وأي ديـن في التجـدد يتبعـون.

إن لم تكـن القاهـرة حـاضرة الأم العربيـة السياسـية و«يمحـو اللـه مـا يشـاء ويثبـت وعنـده أم الكتـاب» فـإن القاهـرة حـاضرة الأم العربيـة اللغويـة ملـك الشـعر فيهـا «شـوقي» والأقاليـم العربيـة في المـشرق والمغـرب قاطبـة مـن أعمالهـا وأدباؤهـا عمالـه وأهلهـا «رعيـة إحسـانه» وإن لهـذا الملـك علينـا السـمع وإن لنـا عليـه الإجـادة في القـول وقـد (واللـه) أجـاد وقـد

سـمعنا وأطعنـا وجئـت أحتفـى بـه (يـوم تكريمـه) في المحتفـين واعـترف بقدرتـه المتعاليـة في القريـض مـع المعترفـين.

جـاء محمـد وجـاء خليفتـه وجـاء محمـود وخـرج نابغـة الشـعر العـربي «أحمـد شـوقي» وكان المقتطـف ثـم جـاءت هـذه الدولـة الأدبيـة العربيـة المصريـة ومـن رجالهـا الكاتـب الأكـبر، والشـاعر الأكـبر، والمفكـر الأكـبر، والأديـب الأكـبر، والخطيـب الأكـبر، والنقـاد الأكـبر، والباحـث الأكـبر، والفقيـه الأكـبر، والمتفنـن الأكـبر، والعـالم الأكـبر، وكل كبـير في علمـه وفنـه فصـات في أرجـاء الكـون هـذا الصـوت

إلا إن محمدًا

وذكر محمد

وقرآن محمد

ولغة محمد

وعربية محمد

وأدب محمد

كل ذلـك لن يـزول، كل ذلك لن يبيد، وفي الدنيا مصر

اللُّغة العربيَّة

والأستاذ الرّيحاني

•••

كان المفكر الكبير النابغة الأستاذ أمين الريحاني قد قرأ كلمتي في اللغة العربية – وهي الخطبة التي خطبتها في دار جمعية الرابطة الشرقية في اليوم الأول من ذي القعدة سنة ١٣٤٣ - فأرسل إليَّ بكتاب (نشر في مجلة منيرفا في بيروت) فيه ثناء وفيه نقد لا يكتبه إلا مثله من الكاملين الفضلاء. فأجبته. فرد عليّ (وكان الرد من جنس الكتاب) فأجيب الردّ بالمقالة الآتية. وقد ظهر هذا التجاوب في جريدة الميزان في دمشق في رمضان المبارك سنة ١٣٤٤.

وربما خيل (إذ كان هذا التحاور) أنّ الرأي مختلف. وأني أريد أمرًا ويريد الأستاذ أمرًا في حين أن كلينا لا يبغى للعرب إلا خيرًا. وهو حليفي في آرائي وأنا حليفه في آرائه.

فليعلم كل عاقل أن ليس بين الصاحبين اختلاف. وإن مقالة الأستاذ في (التجدد) في مجلة (الكشاف) في بيروت في السنة الماضية لتثبت موافقة الأستاذ إياي. وأنا (والله) لا أسأل أكثر مما سأله فيها بل أرضي اليوم من أمة العرب بالقليل بل أرضي بالأقل فهات القليل هات الأقل وخذ دنياي.

فيبدو لي (والحالة كما بينتها) أن الذي حدا أخي الصديق على الرد على أنه عدني قد شددت (وللشدة حين) فجاء يلين، وظني (والظن يقين) أني لو لنت لرأى الرائي منه شدة.

المقالة

•••

وجـدتُ الأسـتاذ الريحـاني يعيـب في مقالـه التقليـد (والأغـراب ويُهجـن) اصطلاحـات واسـتعارات يشـغف بهـا المقلـدون) ويعـد الإنشـاء فنًـا - والتجـاوز في الكلـف بالفـن خـسران - واللغـة ذريعـة - واتخـاذ الذريعـة غايـة ضـلال - ويـرى أننـا محتاجـون جـد محتاجـين إلى الـذي هـو أنفـع إلى العلـم الغـربي الحـق فـلا يجـوز أن يشـغلنا الـكلام المـزوق عنـه.

أجـل إنَّ في هـذا العـصر مـن يُقلّـد المتقدمـين ومـن يثملـه اللفـظ الغريـب ومـن يسـتجيد الاسـتعارات ويسـتملحها فتظلـم فيهـا معانيـه ولكنـي (والحمـد للـه) لسـتُ كأحـدٍ منهـم فـما أنـا بالمقلـد أديبًـا قديمًـا أو حديثًـا بـل ممـن ينعـى عـلى ذي التقليـد تقليـده.

وقـد ألاقـى الكاتـب العظيـم مـن المتقدمـين فـلا يسـيطر عـليّ ولا أمـشي وراءه ولـه قوتـه وطريقتـه ولي ضعفـي وطريقتـي، وقـد يكـون متقـدم بعـد التحقيـق ضعيفًـا متأخـرًا. وقـد تكـون طريقتـه مضلـة كابـن الحريـري ذي الأسـلوب الأعجمـي وكمضارعيـه مـن المولديـن الذيـن ضلـوا سـواء السـبيل فتنكبـوا عـن النهـج الطبيعـي العـربي وأضلـوا مـن بعدهـم خلقًـا كثـيرًا. وقـد نـددت بهـم في (الكلمـة) ودعـوتُ القـوم إلى هجـر كلامهـم واتبـاع طريـق المهتديـن الصالحـين.

فلسـتُ إذا مقلـدًا في القـول أحـدًا وإنمـا هـي ألفـاظ عربيـة مضريـة عرفتهـا وأسـلوب عـربي مبـين عقلتـه وملكـة جـاءت ثـم كلام هـو ذوب روحـي وابـن نفـسي وخليقتـي وطريقتـي. وفي الخُلـق شـدة وفي النفـس قـوة

وفيها وضوح ظاهرها كباطنها وباطنها كظاهرها. فأنا أشنأ التزويق في الكلام وأشنأ هذه الاستعارات المخسرات وأبغض بديع الجماعة فلا أعرج إلا على القول المبين ولا يجي مني إلا الجملة البينة. وكرهي الغريب الذي ذموه ككرهي الاستمارة الممقوتة. وما هذه الألفاظ التي يطلبها مكانها ويحسبها بعض الناس غريبة (وما هي بغريبة ولا تشبه الغريب) إلا ألفاظ مضرية لا حميرية ولا يمانية وليست من ألفاظ حَضْرَ موَتَ أو الشحر فلا تذمنها (يا أخا العرب) ولا تنكرنها ولا ترينها غريبة وأعرضها على السمع لا يمجها وحرّك بها اللسان فهو لا يستثقلها. وما غرب مثلها إلا تقهقر أمة، القارئ في بدوها وحضرها في الألف واحد. ولو كان لها حال كحال الأمم ما أنكرت معروفًا ولا استغربت غير غريب.

فلست (وهذه حالتي) كما أراد الشيطان أن يصبغني في عين الأستاذ الريحاني. وهذه «كلمتي» وهي خطبة خطبت بها الخاصة بل خاصة الخاصة وما أنشأتها للعامة ولا لمن هم فوق العامة – هل تجد فيها غريبًا وحشيًا وهل تعرض لك في جملها استعارة أو تعقيد أو صنعة يستغلق بواحد منها معنى وهل تعثرن فيها على تقليد متقدم في دهره أو متأخر أم تجد كلامًا عربيًا طبيعيًا حرًا قد خاصم الاستعارات وعادى كل صنعة.

وقد جاء الأستاذ الريحاني إلى (الكلمة) فَنَتَش منها ألفاظًا ليعدها من الغريب ثم يحتج عليّ بها وأعرض عن مئين من أخواتها الواضحات عنده وكل عند الحقيقة متضح وكل من قبيل واحد.

ولقد كان الكاتب الخطيب الكبير الأستاذ محمد توفيق دياب أرحم في قوله في (الكلمة) فإنه يقول في مقالته البليغة في (السياسة) الغراء: «نعم لقد أعادنا الأستاذ إلى عهد الجاهلية أو صدر الإسلام حين كان المعنى الضخم يبرز في اللفظ المتين الضخم وحين كان الكلام يصدر عن القلب فيقع في أعماق القلوب في مستقر ثابت مكين. حين لم تكن صناعة مجلوبة ولا حلية مغصوبة ولا ركاكة ولا عوج».

وذاك العهد الذي ذكره الأستاذ دياب ينبيك ببيان قوله المبين وباستقامته وطبيعيته (قرآن محمد) - على عبقريته وعلى إعجازه وعلى كونه فوق القول - والصحيح الذي جمعه محمد بن إسمعيل وكامل محمد بن يزيد. فاغد يا قارئًا إلى أولئك الكتب واعكف عليها ثم قل لي: هل بعد هذا البيان بيان؟ وهل وراء هذي السهولة سهولة؟ وهل تقابل غرابة تذمها أو تكلفا تمقته أو تحلية تنفر رائيها؟

وهل تجد عندها ما تجده في كلام ابن المقفع والجاحظ والصابي والهمذاني والرضي والمعري والحريري وأمثالهم من قلق أو ارتباك أو تمطيط أو إسهاب أو تعمل أو زخرفة.

وهل يُلام من يُهيب بالأدباء في هذا العصر إلى ورود تلك الينابيع العذبة الصافية ويدعوهم إلى أن يشيدوا بناء لغتهم في هذا الوقت على تلك الأسس الثابتة القوية لكي يستحكم البناء ويرغد عيش أهله فيه ولكيلا يهي أو ينهار ولئلا يُقدم على أن يسوّئ على بانيه بناءه مهندس أو بناء. وهل هذه الملاحة على وجوه طائفة من الأدباء

والقـوة في أجسـامهم إلا لأنهـم كانـوا يـردون الينابيـع القرآنيـة ويشربـون مـن مائهـا.

ولـك أن تشـيد (والعلـم بالـذي تأتيـه هاديـك) عـلى ذاك الأسـاس مـا تريـد فتبنـي حمـراء أو زهـراء أو قـصرًا بلوريًـا أو قـصرًا بندقيًـا أو كل صرح يعجبك شـكله. وذاك الأسـاس فيـما تُنشـيه أساسـك. وذاك النـبراس في البنـاء نبراسـك.

هـل يـلام الداعـي إلى ذلـك وهـل يُعـدُّ صـادًا عـن طريـق الخـير وسـادًا إيَّاهـا؛ وهـل يسـتأهل أن يُـردَّى بثـوب التقليـد؛ وأنـا (والله) لم ألبسـه منـذ عقلـتُ قـط ولـن ألبسـه (إن شـاء اللـه تعـالى) أبـدا.

دع ذا وجئ الآن إلى قـول الأسـتاذ إن الإنشـاء فـن، والتجـاوز بالكلـف بالفـن خـسران وإن اللغـة ذريعـة، واتخـاذ الذريعـة غايـة ضـلال. وقـل لـه بعـد تحيـة ثانيـة. الحـق أن اللغـة لم تـك إلا ذريعـة ومـا هـي إلا ابنـة لغـة الـذي هـو اليـوم أدنى مـن الإنسـان (وإن لم يـر ادسـن الإنسـان أعـلى منـه) ولكـن المـرء قـد تفنـن في هـذه الذريعـة (كـما تفنـن في ذرائـع الـشر) فجـاء منهـا الفـن: جـاء الشـعر وجـاء النـثر وجـاءت تلـك الصفحـات الجيـدة العبقريـة. وأن يقنطـر الفتـى (كـما قـال فلوبـير) ويسـكن قـصرًا بندقيًـا منجـدًا أهـون عليـه مـن أن يُنشـئ صفحـة واحـدة جيـدة.

وراح ذاك الفـن يتهـادى مـع سـائر أخوتـه مـن الفنـون الفتانـة. والرقـص مـن هـذه الفنـون. وإنَّ الرقـص لفاتـن أنَّ الرقـص لفتنـة. وقـد أضـاف الديـن كاتـب الفرنجـي ملعـون إلى تلـك الفنـون، نعـم أضـاف الديـن إلى التـي منهـا الرقـص.

فـإن قلنـا إن مـن اللغـة فنًـا وجـب أن نحتفـظ بـذاك الفـن وأن نعنـى بـه عنايتنـا بغـيره مـن الفنـون. وأنـه لأحـق بالترحيـب والاهتـمام بـه مـن سـواه. وإن كان فـن الموسـيقى أو المصـور مـما يُهـذب نـشء الأمـة فالنـثر القـرآني أعنـي النـثر العبقـري والشـعر العُلـوي أثرهـما في تهذيبهـم أكـبر.

وإن عددنـا الفـن (كـما عـده كاتـب فرنـسي يـوم هاجـت سرقـة تلـك الصورة La Joconde قومـه) سـخافة أو هـذرًا ورحنـا نقـول مع الزمخـشري: «الفنون جنـون والجنـون فنـون» جـاز لنـا أن نعـد كل شيء في الوجـود سـخيفًا وألا نجـد لهـذا الكـون معنـى ولزمنـا أن نبـادر إلى الانتحـار ونـدع الـدار تنعـى مـن بناهـا. لا لا. إن هـذا الحسـبان خـسران والـرأي الحكيـم الرصـين أن نـرى الجيـد جيـدًا والجميـل جميـلًا وإن نبتهـج بمشـاهد الكائنـات مـع المبتهجـين معرضـين عـن مقـالات المعـري وشـوبنهور وشـيعة المتشـائمين منشـدين في كل حـين:

تمتـع من الدنيا فإنك فإن

تمتع من شـميم عرار نجد

«والدنيـا (كـما قـال جـار اللـه) عُمـري ولا خلـود إلا في الأخـرى » كتبنـا اللـه في تلـك الـدار مـع النازلـين في عليـين. إنـه سـميع مجيـب.

فمـن اللغـة فـن ومـن إنشـائها فـن فـلا تسـألَنَّ الفصيـح البليـغ في المقـال أن يـذر فصاحتـه وبلاغتـه وذا الفـن أن يهجـر فنّـه وينـزل مـن عليائـه إلى فنائـه.

ويزايل عزلته ويماشي جماعته ويبتذل أسلوبه وهو يستطيع صيانته ودعه يفتن في الإنشاء كيف شاء.

إن المتفنن في الناس قليل (وقد مات بالأمس أناطول فرنس ولا خليفة في قومه له) وهذه حالة لا يصل إليها كل ساع فلا تخف من أن يكثر المتفننون ... وهذا النفر في الأمم سلوى المكروبين، ومهذب الطالبين، وموقظ الهاجدين، وقائد الثائرين، وظهير المتأدبين، وبكلامه يصقل الكتاب قرائحهم.

فلا تكلف ذا الفن مصارمة فنه وكلفه تنقيحه إن اقتضت الحال تنقيحًا وتجويده أن دعا الداعي إلى تجويد. وإن لم تكلفه فالزمان يكلفه والحاجة إلى إصلاح نقص في فنه تجبره ونور فنه يريه ظلامه فيجليه عنه.

كانت اللغة فجاء منها فن وهو لا يكون في كل ضَرْب مما تخطه الأقلام ولن يكون. وأهله اثنان الشاعر والأديب ولا ثالث لهما فدعهما يحدوان مع الحاد. ويهيمان في كل واد.

وفضيلة كلام (الشاعر والأديب) أو هذين المتفننين هو هذا الجمال الذي تلاقيه فيه. ومع الجمال الوضوح كل الوضوح بل ليس الحسن إلا الوضوح الكامل فمرغبي ومرغب من يترأى برأيي أن نصون هذا الرونق أو هذه الديباجة كما يصون الكريم ديباجتيه فلا يبذلهما.

ويستف ترب الأرض كيلا يرى له

عليه من الطول امرؤ متطول

ولا أبـالي وخير القول أصدقه

حقنـت لي ماء وجهي أو حقنت دمي

وكـما يصون كل ذي فن فنه

وقـد أعلـن الأسـتاذ الريحـاني في مقالـه أنـه يهـوي الديباجـة، ولا ريـب في ميلـه هـذا، فـكل شيء تنوقـت الطبيعـة في تجويـده، وكسـته مـن الحسـن ثوبـه فهـو يسـتهوي النـاس بـل يسـتهوي الآلهـة وقـد قالـت العامـة وقالـت الخاصـة معهـم وجـاء في حديـث: «إن اللـه جميـل يحـب الجـمال»

ولـن ننشـد (إن شـاء اللـه) في يـوم بيـت المتنبـي الـذي أومـأ الأسـتاذ الريحـاني إليـه في كتابـه:

زودينـا مـن حسـن وجهـك مـا دام فحسـن الوجـوه حـال تحـول، فلـن يحـول جـمال العربيـة، ولـن تـزول ديباجتهـا. وإذا أسـتطاع القـوم في باريـس أن يجملـوا بالكهربـاء الشـنيعات، فلـن نعجـز في الـشرق عـن الاحتفـاظ ببهجـة المليحـات.

المنهبـات قلوبنا وعقولنا

وجناتهـن الناهبات الناهب

الناعمات القاتلات المحييات

المبديـات من الدلال غرائبًا الله أكبر

أخـاف (وقـد ذكـرت الملاحـة والجـمال وأوردت هذيـن البيتـين وذكـرتُ الرقـص مـن قبـل وسـمع هـذا التكبـير) أن تسـوء الظنـون فاقـع في ورطـة

فوحـق البيـان يعضـده البرهـان في مأقـط ألـد الخصـام

إني لسـت كما يتظنى ظان

ومـا الأمر كله إلا كما قال الحماسي:

فـما قطرة من حب مزن تقاذفت

بـه جنبتا الجودى والليل دامس

فلما أقرته اللصاب تنفسـت

شـمال لأعلى مائه فهو قارسُ

بأطيـب من فيها وما ذقت طعمه

ولكننـي (فيما ترى العينُ) فارس

أجتـزئ مـن القـول في الإنشـاء الفنـي أو الفـن اللغـوي بمـا قـد أوردت وآتي إلى البحـث عـن اللغـة ذريعـة لا غايـة أو ترجـمان علـم ليـس غـير:

لا جـرم أن العلـم هـو المهـم بـل هـو الأهـم ومـا اللغـة (وقـد كتـب للفـن اللغـوي أو لـلأدب سـجل بقسـطه منهـا) إلا ذريعـة. وليسـت طريـق الـشيء كالـشيء نفسـه، ولكنـك إذا لم تتـذرع لأمـر بذريعتـه المحكمـة لا تصيـب نجاحًـا، وإذا لم تعبـد طريـق مأربـك لا تصـل إلى مأربـك.

ولغـةُ هـذا العلـم عنـد العـرب معروفـة؛ وهـي لغـة سـهلة بينـة صحيحـة التركيـب اللغـوي قـد آخـت لغـة الأدب إلا في الديباجـة وإلا في ألفـاظ اقتضاهـا الحـال وعمـل فيهـا (الانتخـاب الصنعـي) وكثـيرًا مـا تنسـاب هـذه الألفـاظ إلى كلام الأدبـاء وتقعـد فيـه وقلـما طردهـا أديـب أريـب.

وسعت هذه اللغة العربية العلمية علوم فارس ويونان والهند وكل علم جد عند العرب ولم يشك من ضيق في اللغة أحد، وكيف تضيق وثمة بحور تمدها أوقيانوسات. وقد عرف فضل لغة القرءان في العلم علماء الغرب وعلماء الترك ولما أراد الدكتور رضا توفيق الشهير تأليف (قاموسه الفلسفي) وجد أمامه دررًا من كلمات القوم عدد الحصى وقد قال لي ذات مرة: إن الألفاظ الفلسفية العربية تدل على معانيها دلالة لا تدلها الألفاظ الغربية.

فحق على كل فاضل يبغي التأليف في علم قد حذقه أن يُعول على لغة قعد الدهر (والانتخاب الطبيعي) آلافًا من السنين يتقنان صنعها، وصحبها العلم في الإسلام ألف سنة صحبة صدق، كي يستعين هناك بأعوان وحتى يتضح قوله، ويُنير علمه فتذهن الناس ما يقوله وما يترجمه وعندنا من الكتب القديمة في كل علم الكثير بل أكثر من الكثير وقد طبعت المطبعة منها في الشرق والغرب طوائف.

يجعل مقتبس علم غربي يترجم مبحثًا أو ينفق قولًا (وهو لم يتخرج على أستاذ قادر ولم يقرأ كتابًا واحدًا ولم يعرف أسلوب علمه اللغوي ولم يقف على ألفاظه ولا على بعض ألفاظه) وتلفيه يزحر (وهو يكتب) زحيرًا، ويلعن العربية التي جهلها لعنا كبيرًا، ثم يطرح بجهيض يعمي الناظرين فإذا عيبت جهيضه لاحاك وتهدم على اللغة بالتنقيص.

ولبس ذاك الصالح عند التحقيق هو العائب لكن جهله ولو علم لم يعب. ويعزى إلي على: «الناس أعداء ما جهلوا» وقال أبن أبي الحديد في شرح النهج: «العلة في أن الإنسان عدو ما يجهله إنه يخاف من

تقريعه بالنقص وبعدم العلم بذلك الشيء خصوصًا إذا ضمه ناد أو جمع من الناس فإنه تتصاغر نفسه عنده إذا خاضوا فيما لا يعرفه وينقص في أعين الحاضرين وكل شيء آذاك ونال منك فهو عدوك»

وهناك أهل فضل، قلق تركيبهم وخبثت ألفاظهم فإذا نقدت كلامهم لم يكابروا واعترفوا بتفريطهم في جنب اللغة واستغفروا لمعلمين أعماهم الله عن هديهم وتفقيههم، ولاموا أممهم العربية ودولاتها التي تضاجعت عن إعزاز لغتها، واعترافهم هذا ممتدح، وإنهم في ذلك اللوم لمصيبون.

وربما كان في الميدان أناس (كالباب محمد على صاحب النحلة البابية) يرون أن اللغة العربية قد أجرمت في القديم فعوقبت على جرمها فألزمت هذا الإعراب وصفدت بتلك الدساتير اللغوية فلما سعدت الدنيا بتجلي هؤلاء (الأبواب) غفروا ذنوبها فمنوا عليها بإطلاقها من سجن إعرابها وضوابطها فانطلقت حرة وغدا أمرها فوضى.

وليس الأستاذ الريحاني من هؤلاء وليس من ذينك القبيلين ولكنه فاضل نابغة تنكب عن طريق التقليد، وأنكرت نفسه الرق العقلي فكدحت في تحريرها فلما حررها لم يستبد بخيره وأراد أن يشركه في الخير غيره فدعا قومه إلى حريته، وانتحال عقيدته. (وصاحبه عقيده في خُطته). ثم أبصر الأستاذ الغرب يطير ارتقاء وقومه العرب قد ألفوا الحضيض «فهم حضيض» كما قال أبو تمام. فشق عليه أن يشهد ذُلَّ جهلهم وقد أعتز بالعلم خصمهم وآكلهم. وتحقق أن الذي أقعد في العلياء الغرب إنما هو علم الغرب فنادى إلى ايثار ذلك العلم وأشفق

أن يعوقهم الاهتمام بالمهم أو غير المهم عن طلب الأهم فقال لهم اجتزئوا من المونة اللغوية بزاد المسافر. فلن يعذل وهذا قصده وقد قال خالق الأمة العربية «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى».

والحق الذي يدريه الأستاذ الريحاني ولكن حرصه على الذي رآه أحق بالتقديم قد حمله على أن يتناساه هو: أن الانتباه الأدبي في الأمم يسبق الانتباه العلمي فهذا بناء وذاك أساس، وأن الأمم العربية اليوم في عهد الترجمة وعند الغرب علوم كثيرة ومباحث فيها دقيقة، وفرض عين أن تنقلها العربية، وأن يفقهها نشؤها، ولن تفهم ولن تفيد حتى تصح ترجمتها. ولن يستطيع احتواء تلك العلوم ومعانيها إلا اللغة القرآنية العلمية إلا اللغة الصحيح تركيبها، الكثير لفظها التي ظل العلم القديم بينها ويوسعها ويصقلها أحقابًا، وإذا لم توصل لغة علم اليوم بلغة علم الأمس ويستظهر بهذه فلا علم في هذا الوقت عند العرب ومن ظن أن اللغة العامية أو هذه التي هي فوق العامية تقدر أن تعي علوم الغرب وتضم عباراتها تلك المعاني الجديدة الأوربية فظنه عجيب.

وإذا كان القصد أن يترجم القول الغربي بعبارة من العبارات (والتفهيم على الله) فالله قادر أن يقفنا على (مقالة أينشتاين) التي لم يفهمها من علماء الأرض إلا ستة أو سبعة من دون أن يزعج التراجم أنفسهم بنقلها «فإنما يقول للشيء كن فيكون» ولكن الله لن يقول هذا وليس من عمله أن يتصدى لحل الألغاز وتفهيم الناس إياها.

ترجـع إلى تلـك الكتـب العربيـة في العلـم فنصـل مـا قطـع، ونسـتعين بمـا نجـد، ونبنـي لغـة العلـم اليـوم عـلى لغتـه بالأمـس (كـما ذكـرت آنفـا) فيبـين العلـم ويدركـه طالبـه، وتصبـح العـرب ولهـم علـم ولغـة علـم.

العربيَّة في المدرسة

قلت هذه الخطبة في مؤتمر رؤساء المدارس في معارف فلسطين في ٢١ نيسان سنة ١٩٢٧

•••

اللغة هي الأمة والأمة هي اللغة وضعف الأولى ضعف الثانية. وهلاك الثانية هلاك الأولى. وكل قبيل حريص (وقد كان في هذه الدنيا) جد حريص على أن يستمر كونه وعلى ألا يبيد. فهو مستمسك بلغته للاحتفاظ بكينونته. واللغة ميراث أورثه الآباء الأبناء. وأحزم الوراث صائن ما ورث. وأسفهم في الدنيا مضيع.

وإنا (أيم اللسان الضادي) لعرب وإن لغتنا هي العربية. وهي الإرث الذي ورثناه. وإنا لحقيقون والآباء هم الآباء. واللغة هي تلك اللغة بأن نقى عربية الجنس وعربية اللغة نقى العربيتين مما يضيرهما أو يوهنهما وليس ثمة صاد عما نريد. وليس ثمة ذام.

ولو كان المورثون صغارًا ولو كان الميراث حقيرًا لوجب علينا إكبارهم وإعظامه. فكيف والتاريخ يقول: إن الآباء كانوا كرامًا. وإن الآباء كانوا عظامًا. وكان لهم الخلق المتين الجيد، وكان لهم السلطان القوى والسؤدد. وكانوا الأئمة في العلم وكانوا الأئمة في الحكمة فاقرأ كتب علمهم وأقرأ كتب حكمتهم.

والزمانُ يقول: إن العربية خير ما صنعت يداي (وإن الدهر لَصَنَع) وإنها الخيرُ طُرفة أطرقتها الناس. والزمان بالخير (وإن جاد) شحيح.

فالعربية الصنع العبقري للدهر والعربية الدرة اليتيمة أو كثر الزمان ضن به كل الضن ثم سخا.

وإذا كان للنفوس العربية في الجزيرة وهي نفوس تجسمت من القوة أو تكونت منها القوة وهي نفوس تعالت وتعززت فنشأت في الدنيا ألفاظ العلو والعزة وهي نفوس صفت وصرحت وما صفاء سواها وصراحته في صفائها وصراحتها إلا كدر ولبس.

إذا كان لهذه النفوس فضل على لغتها إذ كانت منجمها الذي منه بدت. فلهذه اللغة البينة المحكمة فضل على تلك النفوس. فقد أعطى بيان اللغة وإحكامها أهل اللغة ما أخذته منهم وقد أحسن الماس المشع إلى منجمه. فهذا كون ذاك. وذاك نور هذا.

وإن العربية لو لم تكن الإبداع كله. ولو لم تكن الجمال الأجمل. ولو لم تكن اللغة المصطفاة. ولو لم تك لغة عجبًا ما أختارها الدهر لقرآنها «والله أعلم حيث يَجعلُ رِسالته» ولم تستطع ألفاظها الاستقلال بمعانيه. وكل معنى فيه يأبى أن ينزل إلا في أكرم لفظ. وكل مقصد من مقاصده لا يقبل إلا أعجب أسلوب. ولن ينزل أهل السماء إلا في ذروة العلياء. والكتاب وإن علا حتى أظلَّ (سدرة المنتهى) قد أدناه وقد جلاه نور بيانه حتى أرانا إياه. والشمس قد علت وقد ابتعدت وهل يُحيي وهل يضيء هذه الأرض إلا الشمس.

تلكم الأمة العربية، وتلكم اللغة العربية. وذلكم كتابها. والأمة عجيبة. واللغة عجيبة. والكتاب عجيب. وقد مشينا في هذا الكون يهدينا كتابنا. ويسبقنا خلقنا وبنينا فيه البنيان فأغربنا. وقلنا القول فأبدعنا.

فدهش الرائي وحار السامع. وكان ذلك الخلق يدفعنا إلى الخير فنندفع فيه. وكان الكتاب يأمرنا بالعمل الصالح فنلبيه. وكان اللسان فصيحًا. وكان اللسان بليغًا (والفصاحة هدى والبلاغة نور) وكنا إذا قلنا أبنا. وكنا إذا كتبنا أوضحنا. وكنا إذا استمددنا العربية (وهي ذات الأمداد في اللفظ والأسلوب) أمَدَّتْ.

وقد تكاثرت عليها قدمًا علوم الأمم فرحبت بها كلها. وأعطت كل علم مطلوبه. وذو الثراء الكريم يجود. والضن عند الشحيح العاجز.

وكان كتاب العربية يحدو أهل العربية على كل علم وفي الكتاب:

«قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون»

فكأي من عالم في الزمان الأول في العربية قد نبغ. وكأي من كتاب رصين قد كتب. وكأي من دار علم قد شيدت. وأثر العرب الخالد شاهد. فسل الآثار عن أقدار أهلها تنبئك.

كنا الأقوياء وكنا الحكماء وكنا البلغاء. ثم فقدنا ذاك الخلق ولا تسلني كيف فقدنا ذاك الخلق فتعذَّبَ القلب الكليم القلب الجريح عذابًا أليمًا وتسعر فيه بالذكرى جحيمًا. فلا تسلني كيف فقدنا ذاك الخلق، قد فقدنا ذلك الخلق فقدنا القوة وفقدنا الحكمة وعيي اللسان الناطق قدمًا. ونسينا عربيتنا. نسينا كينونتنا. وما حياة القبيل لا قوة له؟ وما حياة القبيل لا علم لديه؟ وما حياة القبيل قد ضيع لغته. وفقد كينونته؟ فقل عربي يشعر حقًا بعربيته - بكونه عربيًا.

فلا تقم يا هذا في كل حول مأتمًا على قتيل قتل وميت مات وأقم

المآتـم كل يـوم عـلى خلـق عـربي كريـم فقدنـاه. وسـلطان عظيـم أضعنـاه. بـل لا تبكـين هـذا ولا ذاك فقـل جـداءً عنـك بـكاء ومـا نفـع في حـين نادبًـا ميتًـا نَـدْبُ.

وما يـدرك الحاجات من حيث تبتغى

مـن الناس إلا من أجد

نريـد خلقًا عربيًا

نريد قلبًا عربيًا

نريد لغة

نريد لسـانًا ينطق بالحق

نريد لسـانًا ينطق بالعلم

فمـن يكون هذا الخلق؟

ومـن يذكر العربي بعربيته؟

ومن يصلح لسـانًا قد فسد؟

ومن يبيع نفسـه في سبيل الله؟

وأين المعقـل الحصين تلجأ إليه العربية؟

وأيـن المصنع الكريم يُبدئ فيه الصانعون الصنع المنشـود؟

وأيـن دار الأمـل تلـوذ بهـا النفـوس المكتئبـة القانطـة؟ مـن المكـون؟ مـن المذكـر؟ مـن المصلـح؟ مـن البائـع نفسـه في سـبيل اللـه؟

وأيـن المعقل؟ أين المصنع؟ أين الدار دار الأمل؟

الأستاذ، المدرسة

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان

رقمنة
مشروع النشر الرقمي